أصناف النساء ببلاد المغرب القديم
من خلال الآثار المادية والمصادر الأدبية

الدكتورة خديجة منصوري

جامعة وهران

مقدمة: فرضت المرأة تواجدها بالمغرب القديم في العصور القديمة في مجالات متعددة، بحيث تدلنا المصادر على نساء ملكات تربعن على العرش مثلما تعرفنا ببعض زوجات الملوك اللواتي كان لهن دورا في تسيير شؤون المملكة حتى وإن كان ذلك بطرق غير مباشرة، كما وجدت سيدات أعمال تركن بصماتهن في المجال الاقتصادي، ونساء مارسن مهن مختلفة كالمزارعة والبائعة زيادة على اللواتي مارسن بعض المهن الغير المشرفة. وإلى جانب هؤلاء وجدت فئة أخرى تفرغت للنشاط الديني سواء في الفترة الوثنية أم بعد انتشار المسيحية.

يواجه الباحث المهتم بالتاريخ الاجتماعي عموما للعصور القديمة صعوبات جمة تعيقه عن إعطاء هذا المجال حقه من الدراسة، فما بالنا بموضوع المرأة ليس كمخلوق بشري تكمن وظيفته في تكوين أسرة ورعايتها أو ككائن مسخر لتلبية رغبات السيد، وإنما كفرد من المجتمع تؤدي دورا في مجال ما قد يكون سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو دينيا أو ثقافيا. ومما نتأسف له ترسخ ذلك التصور القديم الذي يصنف المرأة التي عاشت في العصور القديمة ضمن إحدى الفئتين إما ملكة أو جارية، هذا التصور الذي نجد له ما يبرره حين تقتصر مصادر المؤرخ المتخصص في التاريخ القديم على الأساطير والنصوص الكلاسيكية، غير أن ظهور ما يعرف بالعلوم المساعدة للدراسات التاريخية كالمراسيم التي أصدرتها السلطات السياسية وما تضمنته

من مواد قانونية حول هذه الشريحة الاجتماعية، وما تفيدنا به النقوش أثبتت عدم صحة هذا التصور.

صحيح أن المصادر بمختلف أنواعها لاسيما النقوش التي لولاها لما استطعنا معالجة هذا الموضوع تكتفي بذكر عدد ضئيل من الأسماء لشخصيات نسوية دون أن تعرفنا بسيرتهن الذاتية، كما أن المعطيات التي تضمنتها غالبا ما تكون مجرد إشارات تثير فضول الباحث أكثر مما تشبع رغباته العلمية. ورغم الفراغ الكبير الذي يميزها، فهي على الأقل تؤكد عدم تقوقع المرأة خلال تلك الحقبة الغابرة ضمن هذه الثنائية (الملكة أو الجارية). إذ تسمح المعطيات التاريخية المتوفرة في الوقت الحاضر بتصنيف نساء بلاد المغرب القديم حسب طبيعة نشاطهن ضمن أربعة أصناف نذكرها على التوالي:

أولا المرأة الملكة: يضم هذا الصنف المرأة الملكة. وإذا ما أطلق لقب"الملكة" على الملكة الحاكمة التي تربعت فعلا على عرش مملكتها أو بعبارة أصح كان الملك بيدها مثلما أطلق على زوجة الملك، فإن وضعيتهما القانونية وصلاحيتهما في البلاط الملكي تقتضي ضرورة التمييز بينهما. فإذا ما كانت الأولى بموجب الصلاحيات المخولة لها هي صاحبة السلطة العليا، يقتصر دور الثانية على المشاركة السياسية ليس بصفة رسمية وإنما من خلال تأثيرها على زوجها أو على الجهاز السياسي المحيط به، مما يجعل أهميتها متفاوتة من ملكة لأخرى حسب شخصية كل واحدة وشخصية الملك من جهة أخرى.

1- الملكة الحاكمة: يجهل العدد الحقيقي للملكات اللواتي تربعن على عرش بلاد المغرب القديم، إذ كل ما احتفظت به المصادر اسمين لملكتين، الأولى فينيقية الأصل اسمها الفينيقي إليشات واشتهرت باسم عليسة ديدون، والثانية من السكان المحليين اسمها تين هينان.

عليسة ديدون: يذكر جوستينوس 'Justinus' أنها ابنة متون ملك صور، عينها والدها رفقة أخيها بيغماليون ليخلفانه على العرش، لكن ما أن توفي والدهما حتى اعترف سكان مدينة صور بابنه بيغماليون ملكا دون أخته، هذه الأخيرة التي تزوجت إثر ذلك بخالها أشرباص الذي كان من أثرياء المدينة وكاهنا للإله ملقارت، غير أن بيغماليون تخلص منه حتى يتسنى له الاستيلاء على ثروته. فما أن علمت عليسة بمقتل زوجها على يد أخيها حتى قررت مغادرة مدينة صور وشرعت في الاستعداد للرحيل، ولما حان الوقت المناسب أبحرت رفقة بعض أعيان المدينة الذين كانوا يكرهون أخيها على متن سفن نحو جزيرة قبرص[1].

حطت عليسة ديدون وأنصارها بجزيرة قبرص، وهناك تقدم إليها كاهن الجزيرة المشرف على طقوس عبادة الإله جوبيتر، وطلب منها مرافقتها بصحبة زوجته وأطفاله تنفيذا لأوامر الآلهة، كما وعدها بأن يقتسم معها ثروته شريطة ممارسته هو وأولاده المهام الكهنوتية لمدى الحياة بالمدينة التي ستؤسسها. فقبلت شرطه وأبحرت في اتجاه شمال إفريقيا رفقة أنصارها والكاهن وأسرته زيادة على 80 فتاة قبرصية ستصبحن زوجات للشبان الذين رافقوها مشكلين بذلك السكان الأوائل الذين سيعمرون المدينة التي تريد تأسيسها. ولما علم بيغماليون بهروب أخته قرر إرسال قواته لملاحقتها، لكنه اضطر إلى التراجع عن قراره تلبية لتوسلات والدته وخوفا من تهديدات الآلهة بعدم تعرضه لتأسيس مدينة يعتبرونها مدينة مميزة عن بقية العالم، مما طمأن المهاجرين الصوريين وعلى رأسهم أخته وجعلهم يواصلون إبحارهم دون قلق[2]. ما أن وصل هؤلاء المهاجرون إلى ساحل شمال إفريقيا حتى سعت عليسة إلى كسب صداقة السكان المحليين، هؤلاء الذين فرحوا بقدومهم واعتبروا تواجدهم

1- Justinus, Historiarum Philippicarum ex trogo Pompeio, XVIII, IV.

2- Ibid, XVIII, V.

بالمنطقة فرصة لتنشيط تجارتهم، بحيث اشترت قطعة أرض بمكان أطلقوا عليه اسم بيرسة أو بارساة بالبونية استقرت فيها رفقة المهاجرين الذين رافقوها وأسسوا فيها مستوطنة قرطاجة مقابل دفع ضريبة للسكان المحليين، لكن ما أن ازدهرت المستوطنة حتى أسرع هيارباس ملك الماكسيتانيين الذين يعيشون بجوارها إلى أعيان المدينة وطلب منهم الزواج بعليسة مهددا بالحرب في حالة رفضهم لطلبه، فلما أخبروها بهذا الطلب قررت التضحية بنفسها والانتحار لإنقاذ قرطاجة من الوقوع في يد هذا الملك[1].

لو نتمعن في شخصية عليسة نجد أن انتحارها ما هو سوى رفضا صريحا لإخضاع شعبها ومدينتها لهيمنة أجنبية. فلقد ضحت بنفسها حتى يعيش شعبها حرا متمتعا باستقلاله طالما أن هذا الزواج لم يكن حسب هيرباس مجرد علاقة زوجية عادية بقدر ما هو وسيلة لبسط نفوذه على قرطاجة والاستفادة من ثرواتها. فكيف لها أن تقبل بذلك وهي لم سمح لأخيها بالاستحواذ على ثروة زوجها، وهل يعقل أن تتخلى بسهولة عن هذه المدينة التي تعد المفتاح الذي يفتح لها الباب على مصراعيه لتحقيق مشاريعها الرامية إلى تأسيس مملكة. كما أنه يبرز مدى قوة شخصيتها بكل ما تتضمنه هذه العبارة من معاني كالشجاعة والإقدام والذكاء... الخ، بحيث لم يكن من السهل عليها الخروج من مملكة كانت قد بلغت درجة من الرقي الحضاري وعبور البحر لتأسيس مدينة برقعة جغرافية يقطنها شعب لم يكن قد ارتقى إلى نفس المستوى الحضاري الذي تعودت عليه، هذا من جهة ومن جهة أخرى لا ينبغي أن ننسى الظروف المحيطة بخروجها من مدينة صور إذ لم تكن ظروفا عادية طالما خرجت هاربة من أخيها، و بالتالي لا يمكنها في حالة فشلها في تنفيذ مخططها العودة إلى موطنها خاصة وأن ذلك يوقعها في يد أخيها الذي قد ينتظر الفرصة للانتقام منها.

1- Ibid, XVIII, V-VI.

تين هينان ملكة الهقار: ناذرة هي المعطيات التي تفيدنا بها المصادر حول تين هينان مما لا يسمح للباحثين بإزالة الغموض المحيط بهذه الشخصية، هذا الغموض الذي جعل السيد كامبص G. Camps يعتقد أن الاسم الحقيقي لهذه الملكة مجهول وأن "تين هينان" أي سيدة الخيام هي كنيتها ولها معاني مختلفة، بحيث قد تترجم إلى "سيدة المعسكر" أو "سيدة من عائلتنا"[1].

ارتأينا خلال دراستنا لهذه الملكة الانطلاق أولا من الأسطورة المعروفة لدى الطوارق، والتي مما جاء فيها أن تين هينان أميرة مسلمة خرجت من تافلالت من الجنوب الغربي للمغرب الأقصى واتجهت شرقا حتى سيلات ببلاد الأهقار المعروفة لدينا بالهقار التي كانت شبه خالية من السكان ومن وسائل العيش، ولما تمكنت هي وخادمتها تاكامات من استرجاع قوتهما بعد عثورهما على المؤن تزوجتا واستقرتا بأبالسة حيث اعترف بها الإيزابتن ملكة عليهم، فأنجبت تين هينان صبية اسمها كيلة وهي التي تنحدر منها قبيلة كيل ريلة في حين أنجبت تاكامات صبيتين تنحدر منهما القبيلتين التابعتين لقبيلة كيل ريلة ألا وهما داق والي وآيت لوايين[2].

هذا وقد عثر سنة 1969 بعين صالح على مخطوط مما جاء فيه أن تين هينان ابنة السيد الملك مرت بالمنطقة في سنة 1020 هجرية الموافق لسنة 1642 ميلادية، و أن ابنتها أو حفيدتها أكيلة هي زوجة السيد الثالث الذي حكم الهقار[3]، وبالتالي تكون تين هينان حسب هذا المخطوط ملكة بربرية مسلمة عاشت على الأقل في القرن الحادي عشر هجري الموافق للسابع عشر ميلادي.

1- G. Camps, L'Afrique du Nord au féminin, Paris, Perrin, 1992, p. 121.

2- Ibid, p. 116.

3- Ibid, p. 117.

لا يستبعد أن تكون الأسطورة المعروفة لدى الطوارق قد أخذت من هذا المخطوط الذي لعله اعتمد بدوره على رواية شفوية قديمة توارثها الأجيال دون المحافظة على مصداقيتها. وأي كان المصدر فإن المعلومات التي تفيدنا بها الأسطورة والمخطوط تتعارض مع المعطيات المادية التي كشفت عنها الحفائر التي قام بها السيد ريغاس M. Reygasse سنة 1933 بقبر تين هينان بأبالسة التي تبعد عن غرب مدينة تمنراست بثمانية وسبعون كيلومتر، بحيث لم يعثر بالقبر ولا بالغرف الإحدى عشر للمعلم الجنائزي على أية بقايا تنسب للعهد الإسلامي، وخلافا لذلك عثر على الهيكل العظمي لتين هينان مغطى بقطعة من الجلد الأحمر ومزين بمجموعة كبيرة من الحلى زيادة على بعض الأدوات وجدت بجواره نلخصها فى الآتى[1]:

نوع القطعة	المادة	العدد
سوار	الذهب	07
سوار حلزوني	الحديد	01
سوار	الفضة	08
منجد دائري (جوهرة معلقة بسلسلة تلبس في العنق)	الذهب	01
منجد على شكل عمود	الذهب	01
نجمية مشكلة من كريات	الذهب	17
عقيق	الذهب	10
عقيق كبير على شكل ورق ملفوف	الذهب	03

1- M. Reygasse, Monuments funéraires préislamiques de l'Afrique du Nord, Paris, Arts et métiers graphiques, 1950, p. 97-103, G. Camps, Op. Cit, p. 112-114.

عقيق1	الينع، خلقيدونية، لأمازونيت	620
حبة عقيق	خليط من الجبس والطين	01
عقيق	الانتيمون	07
مثقب	الحديد	02
علامة نقود الإمبراطور قسطنطين	الذهب	03
قدح	الزجاج	01
خاتم صغير	الذهب الحبوب	01
مصباح روماني	الطين	01
جفنه	الخشب	01
تمثال امرأة	الكلس	01
قطعة كأس	الزجاج المنحوت	01
كأس يحتوي على المغرة	الحجارة	01
قطع من السرير الجنائزي	الخشب	؟
قطع من القماش	؟	؟
قطع من الكفن أو من القميص	الجلد	؟
قطع من الحصير	؟	؟
سلة	؟	على الأقل 02

تؤكد هذه البقايا أن قبر تين هينان بني قبل العهد الإسلامي لاسيما المصباح الروماني الذي لم يعد يصنع منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وان كان لا يزال

1- عقيق متنوع يتشكل من الينع وهو حجر كريم أحمر والخلقيدونية وهو حجر شفاف والأمازونيت وهو حجر للزينة أخضر فاتح و أخضر مائل للأزرق.

يستعمل بهذه المنطقة البعيدة، وعلامة نقود الإمبراطور قسطنطين التي ضربت بين سنة 308 و324، وبصورة خاصة خشب السرير الجنائزي الذي يرجع حسب الكاربون 14 إلى ما بين 430 و660 ميلادية[1]. فكل هذه المعطيات تؤكد أن تين هينان دفنت بين القرن الرابع والسادس الميلادي، لكنها لا تسلط الضوء على مملكتها ولا على شعبها ولا على علاقتها بالرومان في الشمال وبالقبائل الإفريقية في الجنوب، ولا حتى على علاقتها بالقبائل المجاورة لها.

2- الملكة زوجة الملك: صوفونيسب "Sophonisbe": تحتفظ المصادر ببضعة أسماء لنساء حصلن على لقب ملكة إثر زواجهن بالملوك، و رغم أهمية الدور الذي كان لبعضهن في البلاط الملكي إلا أنه لم تسند لهن أية مهام سياسية محددة. ونذكر في هذا السياق ملكة من أصل قرطاجي اسمها صوفونيسب"Sophonisbe" أو بعبارة أصح صافان بعل "Saphanbaal" بمعنى التي يحميها الإله بعل والتي سنحاول إلقاء الضوء عليها من خلال ما جاء في كتاب تيتوس ليفيوس"Titus Livius"[2]. إذ ورد في هذا الكتاب أن الملك ماسينيسا طلبها للزواج من والدها هدربعل وأن هذا الأخير وافق في البداية على طلبه، لكنه سرعان ما تراجع تحت ضغط مجلس قرطاجة الذي أهداها لصيفاقس ملك مملكة مصيصيليا مقابل تحالفه مع القرطاجيين في حربهم ضد الرومان.

ومما لا ريب فيه أنه كان لهذه الملكة دور هام في نشر الثقافة والديانة القرطاجية في بلاط الملك صيفاقس، و أنها كانت وراء الدعم الذي قدمه هذا الأخير للقرطاجيين. و لعل أهم ما يلفت الانتباه هو مدى قوتها ورزانة عقلها وتمسكها بالديانة القرطاجية، هذا ما يتجلى من سجودها لماسينيسا المنتصر إثر انهزام القرطاجيين

1- G. Camps, Op. Cit, p. 118

2- Titus Livius, Histoire romaine, XXIX, 23, 4.

وحليفهم صيفاقس في الحرب البونية الثانية حسب ما تمليه عليها ثقافتها البونية، هذا السجود الذي هو تعبير صريح عن هزيمتها وفي نفس الوقت سجودا للآلهة التي حققت النصر للمنتصر، هذا من جهة ومن جهة أخرى مدى تمسكها بأصالتها واعترافها بذلك الامتزاج الحضاري بين القرطاجيين والنوميد بدليل أنها فضلت تسليم نفسها لماسينيسا والزواج به عوض الوقوع في يد الرومان، غير أن هذا الزواج دام يوما واحدا فقط بسبب الضغط الذي تعرض له ماسينيسا لتسليمها للسلطات الرومانية حتى تعامل حسب ما يقرره الرومان، لأن ماسينيسا حتى وإن كان من المنتصرين إلا أن صوفونيسب لم تكن أسيرته طالما أن الحرب اندلعت تحت إشراف الآلهة الرومانية التي حققت لهم النصر، وبالتالي لا يجوز حرمان هذه الأخيرة من غنائمها. زيادة على ذلك كان الرومان يعتقدون أن ماسينيسا أراد أن يعبر من خلال هذا الزواج عن وراثته لعرش صيفاقس بعد احتلاله مدينة سيرتا والاستيلاء على قصره، دون أن ننسى تخوف شبيون من مدى تأثير صوفونيسب مستقبلا على ماسينيسا ودفعه للتخلي عن مساندة الرومان. ولما عجز الملك النوميدي في الاحتفاظ بها وكان سيسلمها للرومان ضحت بنفسها وانتحرت سنة 203 ق. م عوض الظهور في احتفالات النصر التي كان سيقيمها الرومان والتي تعبر عن هزيمة وطنها وآلهتها.

أونووي Eunoé: اسمها الحقيقي أوسنوفة "Ausnufa"، وهي حفيدة أحد قضاة مدينة وليلي (Volubilis)، اغتنمت فرصة مرور المرتزق سيتيوس "Sittius" بالمدينة حين كان يسعى إلى تجنيد بعض الفرق وهربت معه لتصبح عشيقته وتحت حمايته، وهو الذي منحها لقب أونووي "Eunoé" أي العطوفة. ومما يذكر عنها أنها أصبحت بعد ذلك سيدة أعمال، بحيث استأجرت عناصر من قبيلة من الماكينيت "Macénites" التي تعيش بجبال الأطلس لتزويدها بخشب العصفية من موريطانيا لتبيعه بروما حيث الطلب عليه، و زيادة على هذا النشاط اشترت فرقة من العازفات على الناي

لتأجيرها في الحفلات التي كان يقيمها السادة. وفي إحدى الحفلات التي أقامتها بمدينة طنجة (Tingi) استقبلها بوغود ملك موريطانيا الغربية رفقة فرقتها بالقصر الملكي حيث رقصت له وقضت معه الليلة، هذا الأخير الذي لم يسمح لها بالذهاب إلى مدينة ليكسوس (Lixus) وتزوجها، وفي ظرف بضعة أسابيع طردت كل نساء القصر وعوضتهن بعازفات الناي[1]. كما يذكر سويتنيوس"Suetonius" أنها كانت إحدى عشيقات يوليوس قيصر خلال الحرب التي قادها بإسبانيا، وأنها استطاعت التأثير على زوجها بوغود ليساند قيصر في هذه الحرب[2]. هذا كل ما يعرف عنها، ولا ندري ما كان مصيرها بعد الثورة التي أعلنها سكان طنجة على هذا الملك وبعد استيلاء بوخوص على مملكة بوغود.

للأسف لا يزال يجهل الكثير عن زوجات ملوك بلاد المغرب القديم، إذ كل ما يعرف عن كليوبتره سيليني ابنة كليوبتره ملكة مصر أنها زوجة يوبا الثاني ملك موريطانيا الذي أشركها في الملك، هذا الأخير الذي تزوج بعد وفاتها بالملكة غلافيرة "Glaphyra" أرملة إسكندر ابن هيرود الأكبر بين سنة 1و4 ميلادية ثم طلقها في حوالي سنة 5 ميلادية[3]. أما أورانية "Urania" الملقبة بالملكة حسب النقش المكتشف بمدينة شرشال سنة 1938، فالمؤكد أنها من أصل إغريقي وأنها دخلت القصر الملكي الموريطاني ضمن عبيد القصر ثم أعتقت، أما ما حدث بعد ذلك فهو لا يزال غامضا وكل ما يمكن افتراضه أنها كانت محظية الملك بطليموس، وأن سكان المملكة أطلقوا عليها لقب الملكة دون أن يعني ذلك مشاركتها في الملك[4] كغيرها من نساء القصر

1- G. Camps, Op. Cit, p. 69-71.

2- Suetonius, Caesar, I, LII.

3- S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, t VIII, Paris, 1928, p. 206-222. 277-279

4- J. Carcopino, La reine Urania de Mauretanie, Paris, 1946, p. 31, 36, 37.

اللواتي لم يكن في نظر رعايا المملكة شريكات الملك في العرش[1]. لاشك أنه كان للملكات اللواتي تربعن على العرش ببلاد المغرب القديم والملكات زوجات الملوك دورا هاما في النشاط السياسي، لكن لا النصوص الأدبية ولا المصادر المادية تسمح بإبرازه. وخلافا لذلك نعرف مدى أهمية الدور الذي لعبته جولية دومنة "Iulia Domna" زوجة الإمبراطور سبتيموس سيفيروس "Septimus Severus" وأختها مايسة "Maesa" لإبقاء العرش بيد عائلة السيفيريين طيلة 30 سنة[2] وحتى وإن نفتقد المصادر التي تدلنا على هذا الصنف من النساء بالمنطقة المعنية بالدراسة، فإننا لا نعتقد بفكرة بلوغ الملكات وزوجات ملوك بلاد المغرب القديم تلك المكانة التي بلغتها زوجات الأباطرة، ونذكر على سبيل المثال الإمبراطورة جولية "Iulia" الزوجة الأولى للإمبراطور أوغسطس التي ألهت سنة 42 ميلادية مثلما أله الإمبراطور، وأقيمت لها المعابد حيث تؤدى طقوس عبادتها كالمعبد الذي أقامه لها ماركوس باريا "Marcus Barea" والمذبح الذي أقامته لها الكاهنة كيلية أورورية بوتيتة "Caelia Ururia Potita" بسيرتا[3] (Cirta) قسنطينة حاليا.

ثانيا – المرأة سيدة أعمال: فرضت المرأة المتوسطية تواجدها في العصور القديمة حتى في مجال الأعمال، بحيث وجدت بروما نساء مقاولات يملكن مؤسسات عمومية، واهتمت أخرى بالنقل والتسليح أو بتموين روما أو بالقرض بالربا[4]، كما كان لبعضهن مؤسسات بحرية بميناء أوستيا[5]. وإذا ما حرم المرسوم الذي أصدره

1- Sallustius, Bellum Iugurthinum, LXX, 6.

2- G. Ch. Picard, La civilisation de l'Afrique romaine, Paris, Plon, 1959, p. 289.

3- Corpus Inscriptionum Latinarum (dorénavant C. I. L.) VIII, 6987.

4- M. Bardèche, Histoire des femmes, Paris, 1968, p. 246.

5- C. I. L. XV, 3729, 3845-3847, 3960-3961.

الإمبراطور سبتيموس سيفيروس "Septimus Severus" سنة 207 على المرأة ممارسة مهنة المحاماة للدفاع عن موكليها وحصرها في حالة الدفاع عن مصالحها[1]، فإن ذلك لم يمنع بروز بعض النساء في هذا المجال نذكر على سبيل المثال هورتانسية "Hortensia" التي دافعت عن نساء روما المطالبات بضريبة ثقيلة ونجحت في إعفائهن من حصة كبيرة من الضرائب المفروضة عليهن[2].

تبقى المصادر صامتة حول معظم هذه الأنشطة النسوية ببلاد المغرب القديم، غير أن هذا لا ينفي وجود نساء مارسن بعض الأنشطة الاقتصادية الهامة، نذكر على سبيل المثال ولا للحصر أونووي "Eunoé" التي نشطت قبل زواجها بالملك بوغود في المتاجرة بخشب العفصية زيادة على امتلاكها فرقة عازفات على الناي كانت تؤجرها لتنشيط الحفلات التي يقيمها السادة[3]، والسيدات ذوي الأملاك العقارية كالسيدة إميلية بودنتيلة "Emilia Pudentila" زوجة الكاتب أبوليوس "Apuleius" التي استطاعت بفضل حسن تسييرها لأملاكها تكوين ثروة بلغت أربعة ملايين سسترس، هذه الثروة التي تتجلى من خلال ما منحته لولديها من أراضي وحقول ممتازة ومنزل كبير مجهز بكل ما يحتاجانه، زيادة على كميات كبيرة من القمح والشعير والخمر وزيت الزيتون ومحاصيل أخرى مما تنتجه أراضيها[4]. ودائما في هذا السياق يشير نقش عثر عليه بعين مشيرة قرب مدينة قسنطينة إلى ضيعة لسيدة تدعى أنطونية ساتورنينة "Antonia Saturnina" أقامت فيها سوقا أسبوعيا[5]، كما يدلنا نقش آخر على ضيعة للسيدة كيلية

1- Codex Iustunianus, 2, 12, 4.

2- Valère Maxime, Tibère Auguste, VIII, III, 2-3.

3- G. Camps, Op. Cit, p. 69-71.

4- Apulcius, Apologie, LXX, LXX VII, CIII .

5- C. I. L. VIII, 8280.

ماكسيمة "Caelia Maxima" بعين التين على بعد 12 كلم عن مدينة ميلة (Mila) [1]. هذه بعض الأسماء ولاشك أن مثيلتهن كثيرات.

ثالثا – المرأة العاملة: أدرجنا ضمن هذه الفئة المرأة المزارعة التي لديها قطعة أرض صغيرة أو متوسطة تزرعها بنفسها أذكر على سبيل المثال النساء المشار إليهن في وثيقة لاماسبا[2] (Lamasba) المعروفة في وقتنا باسم مروانة والبالغ عددهن عشرة نساء من هذا الصنف، والمرأة ذات المهن البسيطة كالبائعة المتجولة التي تتنقل بالأسواق الأسبوعية المقامة بالأرياف لتسويق بضاعتها، والبائعة كبائعة الفول وبائعة التبن وبائعة الخبز، والمرأة الحرفية كصانعة الطبل، نضيف إليهن راعية الغنم وصاحبة الفندق. واخترنا من بينهن مجموعة من الأسماء على سبيل المثال ولا للحصر نذكرها على التوالي:

الإسم	المهنة	مكان العمل	المصدر
يانوياريةIanuaria Nundinaria	بائعة متجولة	قلعة بوعطفان	C. I. L, VIII, 15702
أرية نوندينارية Arria Nundinaria	بائعة متجولة	خربة بني ولبان Castellum Celtianum	Ibid., 17006
بيتلية Pet(ilia ?)	بائعة متجولة	بين مورسوت ومداورش	Ibid., 28033
صافدية "Safidia"	بائعة الخبز	خربة بني ولبان Castellum Celtianum	IL. Alg. ,II, 3181
جولية "Iulia"	بائعة التبن	نفس المكان	Ibid., 2936
؟	صاحبة الفندق	قسنطينة (Cirta)	Ibid.,1782

1- Ibid, 19328.

2- Ibid, 4440=18587 .

دوناتة "Donata"	صانعة الطبل	سطيف (Sitifis)	B. A. A. , IV, 1970, p. 346 n°29
إيميلية "Aemilia"	بائعة الفول	قسنطينة (Cirta)	IL. Alg. , II, 870
كورنيلية فورموزة Cornelia "Formosa"	راعية	عنونة (Thibilis)	Ibid. , II2, 5125

رابعا – المرأة ذات النشاط الديني: يتشكل هذا الصنف من مجموعتين تضم كل واحدة فئات متفاوتة الأهمية حسب طبيعة المهام التي تباشرها، ارتبط وجود الأولى بالمعتقدات الوثنية وظهرت الثانية بعد انتشار المسيحية.

المجموعة الأولى: تدلنا النقوش على ثلاث فئات من النساء مارسن مهام دينية مختلفة، أولهن من حيث الأهمية الكاهنة "Flaminica" المسؤولة على طقوس وشعائر الآلهة الوثنية الرسمية للإمبراطورية الرومانية ولاسيما طقوس عبادة الإمبراطورة. فهي تؤدي للإمبراطورة نفس العمل المقدس الذي يؤديه الكاهن المسؤول عن طقوس عبادة الإمبراطور والمتمثل في تقديم القربان بالمذبح أو بالمعبد، هذه العملية التي تتم بحضور بعض موظفي البلدية والعازفين على الناي وبعض المواطنين، ويساعدها أولادها أو شبان يحملون أدوات الطقس الديني والأواني المقدسة التي توضع فيها العطور، بحيث تلقي بالعطور وبالقرابين في نار المذبح مرددة بصوت مرتفع عبارات مقدسة ثم تنحني أمام المذبح وتتلو صلوات تدعو فيها بسلامة الإمبراطورة وسلامة المدينة، يسمح بعدها للمواطنين بتقديم القرابين للإمبراطورة، ويتواصل الحفل تحت رئاستها[1].

تنتمي هذه الكاهنة "Flaminica" مثلها مثل الكاهن "Flamen" المسؤول عن طقوس عبادة الإمبراطور للطبقة الثرية حتى يتسنى لها تسديد المبلغ المالي المطلوب عند

1- Ch. Vars, Recherches archéologiques sur Cirta, R. S. A. C, 29, 1894, p. 381-382.

ترشحها لهذا المنصب والذي بلغ بمستوطنة تيمقاد (Thamugadi) 10000 سسترس[1] وتقديم الهبات للمدينة في حالة فوزها بالمنصب، هذه الهبات التي قد تكون ذات طابع ديني كالمذبح الذي أقامته الكاهنة كيلية أوروررية بوتيتة "Caelia Ururia Potita" بمعبد الإمبراطورة جولية "Iulia" بقسنطينة (Cirta)[2] أو ذات طابع مدني كالسوق الذي تولى الكاهن سرتيوس "Sertius" وزوجته الكاهنة سرتية "Sertia" بتغطية مصاريفه بتيمقاد (Thamugadi)[3] ومما تجدر الإشارة إليه أنه ليس من الضروري أن تكون الكاهنة زوجة كاهن، والأمثلة كثيرة في هذا المجال نكتفي بذكر واحدة ألا وهي أنية كارة "Annia Cara" التي تولت مهام الكاهنة بتيمقاد (Thamugadi) دون أن يكون زوجها من سلك الكهنة[4].

يتم تعيين الكاهنة "Flaminica" من طرف مجلس الديكوريون لمدة سنة تحصل بعد انقضائها على لقب كاهنة لمدى الحياة "Flaminica Perpetua". وزيادة على الكاهنة التي تباشر مهامها بالبلدية أو المستوطنة، وجدت كاهنة المقاطعة التي تؤدي طقوس عبادة الإمبراطورة على مستوى المقاطعة، ويبدو أن عددهن كان ضئيلا بحيث تدلنا النقوش سوى على كاهنتين فقط من وليلي (Volubilis) بموريطانيا الطنجية تقلدتا هذا المنصب[5]، لكن هذا لا يعني عدم وجودهن بباقي مقاطعات بلاد المغرب القديم. كما لا يفوتنا التذكير بحالة خاصة بالكونفدرالية السيرتية حيث تولت بعض النساء هذه المهام بالمستوطنات الأربعة للكونفدرالية في نفس التاريخ أي بكل من قسنطينة

1- L'année Epigraphique (dorénavant A. E.), 1968, 647.

2- C. I. L. VIII, 6987.

3- B. C. T. H, 1894, p. 361 n°74.

4- C. I. L. VIII, 17831.

5- A. E., 1891, 117, 1921, 19.

(Cirta) وسكيكدة (Rusicade) والقل (Chullu) وميلة (Milev) أمثال الكاهنة فيراتية فرونتونيلة "Veratia Frontonilla"[1]. ففي هذا السياق تعرفنا من خلال النقوش المتوفرة بين أيدينا على23 كاهنة و30 كاهنة لمدى الحياة دون إمكانية تحديد المعبود الوثني الرسمي المكرسة له أو الإمبراطورة المكرسة لها باستثناء ثلاث كاهنات واحدة مكرسة لطقوس عبادة الإمبراطورة بلوتينة "Plotina" المؤلهة وكاهنتين لطقوس عبادة الإمبراطورة جولية "Iulia"[2].

تتمثل الفئة الثانية في المرأة الكهنوت "Sacerdos" التي خلافا للكاهنة المذكورة أعلاه تنتمي للطبقة المتوسطة، كما أن وجودها مثلها مثل الرجل الكهنوت مرتبط بالآلهة الوثنية الغير الرسمية كبعض الآلهة الرومانية والآلهة الإغريقية والشرقية والآلهة المحلية للمقاطعات الرومانية. فهي التي تؤدي الطقوس والشعائر الدينية للآلهة المكرسة لها، وتسهر على المحافظة عليها.

ولعل انتشار الآلهة الإغريقية والآلهة الشرقية زيادة على الآلهة المحلية لمقاطعات بلاد المغرب القديم هو الذي كان وراء ذلك العدد الكبير للكهنوت رجالا كانوا أم نساء مقارنة بالكهنة والكاهنات، بحيث تدلنا النقوش على مجموعة هامة من النساء الكهنوت كلهن مكرسات لآلهة معروفة[3] مثلما يتجلى من النماذج المنتقاة في هذا الجدول:

المقاطعة	الإله أو الإلهة
نوميديا	جونو "Iuno"
المزاق	كيليستس "Caelestis"

1- S. Gsell, Les inscriptions latines de l'Algérie (dorénavant ILAlg) II, 695.

2- C. I. L. VIII, 993, ILAlg I, 286/287, ILAlg. II, 550.

3 - لاشك أن عددهن أكبر من ذلك ناهيك عن اللواتي لا يعرف المعبود الذي كرسن لخدمة طقوسه.

إفريقية البروقنصلية	تلوس "Tellus"
نوميديا	
إفريقية البروقنصلية	بلونة "Bellona"
موريطانيا القيصرية	
إفريقية البروقنصلية	فينوس "Venus"
نوميديا	
موريطانيا القيصرية	كيريس "Ceres"
المزاق	وكيريريس "Cereres"
إفريقية البروقنصلية	
نوميديا	الأم الكبرى "Magna Mater"
	إيزيس "Isis"

أما الفئة الثالثة فهي تضم حملة السلال "Canistrariae" التي توضع فيها الأدوات المقدسة لأداء الطقوس الدينية، مهمتهن الحفاظ على هذه الأدوات وتحضيرها عند أداء الطقوس الدينية. وفي هذا الصدد تشير النقوش إلى خمسة منهن مارسن مهامهن بداورش (Madauros) وأربعة بشرشال (Caesarea)[1].

المجموعة الثانية: صاحب انتشار المسيحية ظهور صنفا آخر من النساء فضلن الحياة الدينية حتى وإن كان ذلك ضد رغبة أوليائهن[2]. وتندرج ضمن هذه المجموعة[3] ثلاث فئات، تتمثل الأولى في الشماسة التي يشترط أن تكون عذراء أو على الأقل أرملة

1- IL. Alg. I, 2033, 2071, C. I. L. VIII, 9937, 2060, A. E, 1976, 737

2- Augustinus, Psalmus, 44, 3.

3 - وضعنا هذا التصنيف انطلاقا من النشاط الذي مارسته المرأة في حياتها،لذا لم نتطرق للمرأة القديسة التي استشهدت إثر الاضطهاد الديني الذي سلطته السلطات الرومانية على المسيحيين،والتي أصبحت المصليات أو الكنائس التي دفنت فيها مزارا للمسيحيين للتبرك بها.

محترمة ومخلصة تزوجت مرة واحدة فقط[1]. أما بالنسبة للسن المطلوب للانضمام إلى هذه الفئة لم يحدد إلا في نهاية القرن الرابع الميلادي، وإذا ما تم في القرن الثالث ترقية فتاة من الراهبة العذراء إلى الشماسة وعمرها لم يتجاوز العشرون عاما[2]، فإن مجمع قرطاجة الثالث اشترط أن يكون سنها 25 سنة أو أقل من ذلك[3] في حين أخره الإمبراطور جوستينيانوس Justinianus إلى 50 سنة وبعده مجمع خلقيدونية إلى 40 سنة[4]، وفي الأخير تم الاتفاق على 60 سنة وهو السن الذي حدده مرسوم الإمبراطور تيودوزيوس Theodosius الصادر سنة 390[5].

وخلافا للأرملة التي وهبت نفسها لخدمة الكنيسة يتم سيامة الشماسة ومباركتها من طرف الأسقف[6]، كما أنها تحتل مرتبة محددة في السلك الكهنوتي إذ تلي مباشرة الشماس، وتتمتع بسلطة كنسية حقيقية وإن حرمت من أداء طقس الأسرار المقدسة[7]. ومن المهام المسندة إليها ببلاد المغرب القديم وبالكنيسة الرومانية مساعدة الفقراء، معالجة المرضى من بني جنسها[8]، مراقبة الأرامل وربما مراقبة الراهبة العذراء، حراسة مدخل الكنيسة المخصص للنساء والأماكن المخصصة لهن بداخلها، القيام بدور

1- H. Leclercq, Diaconesse, Dictionnaire d'archéologie chrétienne et de liturgie, t. 4. 1erepartie, Paris, 1920, p. 72.

2- Tertullianus, De Velandis virginibus, IX P. L., II, 962.

3- H. Leclercq, Op. Cit, p. 730.

4- Novelle, VI, 6, CXXIII, 13.

5- Codex Theodosianus (dorénavant C. Th.), XVI, II, 27.

6- Constit. Apost., III, 8, VIII, 17, VIII, 19 dans F. X. Funk, Didascalia et constitutionesd, t. 1, 1906, p. 197, 341, 525-529.

7- J. Gaudemet, L'Eglise dans l'empire romain (IV-V siècles), Paris, Sirey, 1958, p. 122

8- Jerôme, Lettres, 2.

الوسيط بين المسيحيات ورجال الكنيسة والحضور للقاء الخاص الذي يجمع المسيحيات بالأساقفة[1].

تضم الفئة الثانية الراهبة العذراء التي كرست حياتها لخدمة الله، و التي كان الانضمام إليها بمحض إرادة الفتاة إذ لم يكن للأولياء حق الضغط عليها لإجبارها على ذلك أو عدم السماح لها بذلك[2]. أما السن المطلوب للانضمام إلى هذه فئة لم يكن محددا بشكل رسمي في البداية، إذ كان الأسقف هو صاحب القرار في هذا الشأن، وكان ينبغي انتظار القرن الرابع ليحدد على مستوى المجامع الكنسية. فلقد حدد في سنة 393 بخمسة وعشرون سنة، هذا السن الذي اعتمده مجمع قرطاجة لسنة 397، في حين وافق مجمع قرطاجة لسنة 418 على سيامتها في سن مبكرة لإنقاذها من زواج ترفضه أو من خطر الموت[3].

الظاهر أن الطقوس المرافقة لسيامة الراهبة العذراء المتبعة ببلاد المغرب القديم هي نفسها المعمول بها بكل من إسبانيا وروما وميلان، بحيث كانت تتم إما في عيد ميلاد المسيح أو عيد الغطاس أو عيد الفصح أثناء الصلاة وبحضور المجتمع المدني، غير أنه إلى جانب هذا الحفل الرسمي الذي هو بمثابة إشهار لدخول العذراء حياة الراهبة التزمت بعض الفتيات بالرهبنة ضمن إطار ضيق ودون سيامتهن، وهذا ما سمح بظهور أول اختلاف بينهن[4].

كان للراهبة العذراء في البداية حرية الاختيار بين البقاء في بيتها أو العيش الجماعي، غير أن بتضاعف الأديرة أصبحت ظاهرة العيش الجماعي تحت إشراف

1- H. Leclercq, Op. Cit, p. 728.

2- Jerôme, Lettres, 130, 6.

3- J. Gaudemet, Op. Cit, p. 207.

4- Ibid, p. 207-208.

مسؤولة أطلق عليها لقب الأم[1] ظاهرة عادية. فلقد كانت مقيدة بنظام محدد بحيث حرم عليها الزواج والعيش مع الأجانب في بيت واحد وربط أية علاقة معهم، و أجبرت في حالة وفاة أوليائها العيش في الدير تحت مراقبة الأسقف والأرامل[2]، كما حرم عليها حضور الاحتفالات والاجتماعات وشرب الخمر. ومن الواجبات المفروضة عليها قراءة الكتاب المقدس، الصوم، الإكثار من الصلوات ليل نهار وإنشاد الزبور في صلاة يوم الأحد[3] ويضيف القديس جيروم الطاعة والفقر والعمل[4] كالحياكة والغزل مثلما ورد في رسالة للقديس أوغوسطينوس "Augustinus" يشير فيها إلى راهبات مدينتي هيبون "Hippone" المعروفة أيضا باسم هيبوريجيوس "Hippo-Regius" عنابة حاليا وتاغاست "Thagaste" سوق أهراس في الوقت الحاضر، مما جاء فيها " توجد بمدينتي هيبون "Hippone" وتاغاست "Thagaste" ما يزيد عن 100 راهبة عذراء، تنضم إليهن بين الحين والآخر فتيات عوانس وأرامل ومعتقات، ينسجن أو يحيكن"[5].

تتشكل الفئة الثالثة من الأرامل، وكان يشترط للانضمام إليها ألا يقل سن الأرملة عن 60 سنة، وألا تكون قد تزوجت أكثر من مرة، وأن تكون رافضة لفكرة إعادة الزواج وأن تكون مضيافة زيادة على تربيتها لأطفالها وغسلها لأرجل القديسين[6]. فهن يشكلن فئة مميزة ضمن المجتمع المدني، حرم عليهن العيش مع الغرباء، وتكمن مهمتهن الأساسية في تحضير متطلبات التعميد والصلاة ومعالجة

1- Augustinus, Lettres, 263.

2- J. Gaudemet, op. cit, p. 208-209.

3- Augustinus, Lettres, 23, 3.

4- Jerôme, Lettres, 130.

5- Augustinus, Lettres, 263.

6- Tim, I, V, 9, 10 d'après H. Leclercq, Op. Cit, p. 729.

المرضى ومساعدة الفقراء، لكن لا يسمح لهن لا بالتعليم ولا بأداء المهام المقدسة[1]. وإذا ما كان بإمكانهن البقاء في بيوتهن، فإن بعضهن فضلن العيش بالأديرة كشقيقة القديس أوغوسطينوس "Augustinus" التي كانت رئيسة دير بمدينة هيبون "Hippone"[2].

خامسا - المرأة ذات المهن الغير مشرفة: تنتمي لهذا الصنف المرأة الراقصة والكوميدية والممثلة والموسيقية، هذه المهن التي لم تكن تشرف صاحبها أو صاحبتها[3]. ومما يعرف في هذا المجال أن الإمبراطور غراتيانوس "Gratianus" حاول إقناع النساء المسيحيات اللواتي يمارسن التمثيل الهزلي وبناتهن بالتخلي عن هذه المهنة[4]، ثم أصدر الإمبراطور تيودوزيوس "Theodosius" سنة 385 مرسوما حرم بموجبه شراء وتكوين فرق العازفات على القيثارة كما منعهن من الظهور في الحفلات والألعاب مثلما حرم وجود الموسيقيات ضمن العبيد[5]. كما تنتمي لهذا الصنف المرأة المصارعة والمرأة العاهرة التي تمارس الدعارة. وإذا ما كانت الراقصة والموسيقية والممثلة غالبا ما تنتمي للعبيد فإن المصارعة والعاهرة كانتا حتى من الأحرار، هذا ما نستخلصه من نص لأبوليوس "Apuleius" يذكر فيه أن زوجة بونتيانوس "Pontianus" صهر هرنيوس "Herennius" ابن زوجته بودنتيلة "Pudentilla" كانت تمارس البغاء، وأن بابها كان مفتوحا لكل من يستطيع دفع المال لزوجها الذي كان يتاجر بجسمها ويتفاوض حول ثمن الليلة التي يقضيها الشخص معها[6].

1- J. Gaudemet, Op. Cit., p. 187-189.

2- Possidius, Vita Augustini, 36, P. L, 32, 55.

3- Juvenal, Satires, VI, 412-417, Macrobe, Saturnales, III, XIV, 7, Augustinus, La cité de Dieu, II, 13 .

4- C. Th, 15, 7, 4 (date 380).

5- Ibid, 15, 17, 10.

6- Apuleius, Apologie, LXXV1.

يتضح مما تقدم خطأ الفكرة السائدة التي تحصر وجود المرأة حسب نشاطها في أحد الصنفين ألا وهما المرأة الملكة أو الجارية. وخلافا لذلك تؤكد المصادر رغم ندرتها اقتحام المرأة ببلاد المغرب القديم مختلف مجالات الحياة.